الإحتفال الشعبي بمنطقة توات – تمظهرات الطقس و الدين و الفرجة في الزيارة–

The popular celebration in Touat region –the manifestation of weather , religion and watching the visit .

الطالب : رواحي عبد القادر ، الدكتوراه : نورية شرقي

[1] جامعة الجيلالي اليابس قسم الفنون سيدي بلعباس (الجزائر)، kada.rouahi@gmail.com

[2]جامعة الجيلالي اليابس قسم الفنون سيدي بلعباس (الجزائر)، chergui31nora@outlook.sa

تاريخ الاستلام: 2021/11/11 تاريخ القبول: 2021/12/08 تاريخ النشر: 2022/06/05

ملخص : تتميز مناطق المغرب العربي عامة و صحراء توات الجزائرية خاصة بظاهرة اجتماعية منتشرة بكثرة معروفة محليا بـ : "الزيارة" , و هي عبارة عن موسم سنوي معلوم يقام قرب ضريح ولي صالح أوجد قبلي تقي مشهور , بحيث تكتسي بمظاهر طقسية و فلكلورية , إنها احتفالات شعبية مختزنة في ذاكرتها الروحانية , و تمثل موروث ثقافي شعبي لمجتمعاتها , و إحدى مرتكزات هويته ، إذ لا تجد قصر من قصور توات بالجنوب الغربي الجزائري، ليس به ضريح ولي صالح يقام له هذا النوع من الاحتفالات في يوم معلوم من كل سنة. ولأن "الزيارة" ظاهرة دينية شعبية من مظاهر التدين الشعبي فهي أحد أسباب الممارسة الاحتفالية في توات. وقد بحثنا في مكونات الحقل الدين في توات كالمعتقدات في الأولياء والأيمان بكراماتهم والزوايا والتصوف. فقد رصدنا سلوكيات الزوار و سدنة الضريح من حفدة الولي الزوار يومي الزيارة، الشعائرية منه والرمزية، أما الجوانب الفرجوية والمسرحية من رقص وألعاب فلكلورية .وفي الأخير توصلنا إلى خلاصة وهي أن الزيارات التواتية جميعها لم تعد مرتبطة بالولي أو المقدس الضريحي بقوة مثلما كانت في السابق، بل أصبحت واجب عائلي قرابي فتحولت من مناسبة للاتصال الضريحي إلى مناسبة التواصل القرابي العائلي ومن ظاهرة مقدسة إلى فرجة مسرحية، إلا أن زيارة الرقاني مازالت تحافظ القبيلة على الاتصال الضريح وفي نفس الوقت تعيد أنتاج ذاتها وشحن رأسمالها الرمزي والقداسي ونسبها الشريف.

كلمات مفتاحية: الطقس, , الولي , الفرجة , الموسم , الدين , الضريح , الزيارة

Abstract: It is a social phenomenon widely spread in the regions of the Maghreb in general and in the Touat desert in particular, and it is the phenomenon of religious popular celebrations locally known as "the visit",

which is an annual season held near the tomb of Wali Saleh or a famous tribal grandfather, with ritual and folkloric aspects, and it represents a heritage It is a popular culture for its societies, and one of the pillars of its identity, as you do not find one of the palaces of Touat in southwestern Algeria, without the tomb of a valid guardian for which this type of celebration is held on a known day every year.

As the "visit" is a popular religious phenomenon that is a manifestation of the popular religion, so it is popular religiosity and the causes of ceremonial practice in Tuat. We have discussed the components of the field of religion in Touat, such as beliefs in saints, belief in their dignity, Zoya and Sufism. We have observed the behavior of the visitors and the shrine of the granddaughter of the saint who visited the visitors on the day of the visit, both ritual and symbolic, as for the vulgar and theatrical aspects of dance and folkloric games. In the end, we reached a conclusion, which is that all the holy visits are no longer linked to the saintly or holy shrine as strongly as they were in the past, but rather have become a relative family duty, so it turned from an occasion for shrine communication to an occasion for close family contact and from a sacred phenomenon to a theatrical opening, but the visit of Al-Raqani is still connection and at the same time reproduces itself and recharges its symbolic and sacred capital and its honorable lineage

1. مقدمة:

تشترك مجتمعات قصور توات في الجنوب الغربي الجزائري جميعها على غرار شعوب بلاد المغرب – في موروث ثقافي مشترك المتمثل في الاحتفالات الشعبية الموسمية المعروف محليا بـ الزيارات , كما تجمعها عوامل كثيرة ومتعددة جغرافية و اجتماعية و ثقافية , فالطقوس و الممارسات المختزنة في المدونة الشفاهية للذاكرة الجماعية , و التي تظهر على أشكال مختلفة من الرقصات , و التعابير و الممارسات الطقسية والدينية يوم الزيارة متعلقة بفضاء الضريح و غيره من الفضاءات الأخرى بالقصر هي نمط حاسم لصيرورة المعرفة من جهة , وهي قيم حقيقية بسبب وظيفتها المميزة و الهادفة للمحافظة على العادات والمعتقدات و القيم . وهي أشكال يراها المجتمع موافقة لخصائصه و محققة لمطامحه المشروعة و المنسجمة مع المراحل التاريخية و الحضارية التي يحي و يعيش فيها ذلك المجتمع[1]

فصحراء توات بالجنوب الغربي الجزائري ليست فضاء جغرافيا ناشف العطاء فحسب , بل هو أيضا صيرورة ثقافية وتاريخية تظافرت في تكوينها ديناميات الأنتماء الى الدين والتاريخ المشترك , و التطور

ضمن مجتمعات تحكمها مقومات الوحدة و التماثل أكثر من مظاهر الفرقة والتباين , إذ تعتبر الإحتفالات لخير دليل على ذلك , و لبعد الصحراء جغرافيا فقد بقيت في منأى عن المؤثرات الثقافية الحديثة نسبيا , فقد ظلت متماسكة تمسكا قويا بموروثها المحلي بل مقاومة أحيانا لكل مد خارجي لذلك المحلي . ذلك أن للمحلي في المجتمعات عموما و في المجتمعات التقليدية خصوصا سلطة راسخة وبنى رمزية دقيقة ظاهرة وخفية تعجز كل المنظومات الدخيلة – مهما كانت قوتها – عن امتصاصها امتصاصا كاملا , بل ان ما يحدث عادة مجرد تحويرات جزئية[2]

ففي المجتمعات الصحراوية بالجنوب الغربي الجزائري , لا تكاد تجد قصرا من قصور توات و التي تزيد عن ثلاثمئة , قصرا إلا وبه ولي صالح يقام له حفل سنوي يوم معلوم وحسب طقوس متعارف عليها , يتباين فعلها ودرجة قداستها حسب درجة وكرامة ذلك الولي و قدسياه ومدى سيطرته على المخيال الشعبي للسكان

فلماذا المجتمعات الصحراوية , المستوطنة في ذلك الفضاء الصحراوي , تقيم كلها هذه الاحتفالات الموسمية حتى يومنا هذا ؟ ما سر استمراريتها ؟ بالرغم من ارتفاع تكاليفيها المادية ولا سيما عصر القورة الإعلامية و المعلوماتية التي مست ذلك المجتمع , و توسع الفئات المتعلمة . ناهيك عن تزايد الأصوات المعارضة لها من توجهات اسلامية عديدة , باسم التبديع أحيانا و باسم الشرك أحيانا أخرى .

2.العنوان الرئيسي الأول : الإحتفـال الشعبي بمنطقة توات

إن الظاهرة الاحتفالية أو طقوس السنوية و الموسمية تعد من الظواهر اللصيقة بما يجره الإنسان البدائي و المتحضر من تاريخ و عادات و تقاليد , فمنذ أن وجد الإنسان ولدت معه احتفالاته و طقوسه الموسمية كانت أو سنوية " فالظاهرة الاحتفالية كصيرورة إنسانية رافقت وجود الإنسان روحا وجسدا فهو محتاج لذلك , فلحظة الفرح و الانتصار و اللقاء و استعطاف المقدس , بدأت هكذا "[3] , لحظات للركح و الرقص و التمسرح و تقديم القرابين , للتواصل مع الآلهة , والطوطم و الأجداد و الأسلاف ومع مجتمع ذاته .

ولهذا عندما تغزو منظومة ما منظومة أخرى تعجز عن إذابتها و محوها فتستعمل في ذلك أسلحة مختلفة من مصادر شتى , فاذا كانت هذه المنظومة الغازية دينية فإنها تستعمل مقولات تشهيرية هي مفاهيم تعالج بها هذا الأخير وتحاصره عاملة على نفيه واقصاءه باسم البدعة تارة و بسم الكفر تارة أخرى . و

قد جاء الاسلام فعدل من مسارات بعض الممارسات الدينية والعقدية و السلوكية دون أن ينكر وجودها الجذري[4] .

الظاهرة الاحتفالية او طقوس العبور السنوية و الموسمية من الظواهر اللصيقة بالانسان البدائي و المتحضر , فمنذ أن وجد الانسان وجدت معه احتفالاته وطقوسه الموسمية كانت أو سنوية , فالظاهرة الاحتفالية كصيرورة انسانية رافقت وجود الانسان روحا وجسدا محتاج لذلك , فلحظة الفرح والانتصار و اللقاء واستعطاف المقدس , بدأت هكذا [5] , لحظات للركح و الرقص و التمسرح و تقديم القرابين , للتواصل مع الآلهة , و الطوطم و الأجداد و الأسلاف ومع المجتمع ذاته .

و لأن الإنسان كائن اجتماعي بطبعة يستلزم منه أن يكون تواصلي , فليس فقط التواصل هو الذي يتشكل اجتماعيا , ولكن المجتمع ايضا متشكل تواصليا , بما أنه ينتج ويعيد أنتاجه عبر أفعال تواصلية [6] و إذا كانت الظاهرة الإحتفالية ظاهرة دينية , فإن الدين كان و لا يزال آلية للمؤانسة , وارتباط البشرية ببعضها البعض و بالمقدسات التي صنعتها من تساؤلاتها وحاجاتها , و في متخيلاتها فكان البرق والرعد و الشمس والقمر و النار بقدر ما هي مخلوقات ترهب , بالمقابل فإنها كانت جذابة في اتخاذها آلهة تقدم لها القرابين و الأضاحي كعربون وفاء وارتباط و رمز وللإستأناس و التطهر , وفي هذه الشروط الجديدة غدت الظاهرة الإحتفالية مندمجة ضمن سياق تواصلي لا ينفصل عن سياق التاريخ و الدين والاجتماع الروحي و الأعتقادي في تطوراته و تمظهراته و تفاعلاته و تجلياته , هذه باختصار لحظات الانسان الباحث في صفحات تنقلاته التاريخية و الاسطورية عن مصادر الطمأنينة والفرح و السمو الروحي , فلم يجد غير التدين و الاحتفال كلحظتين للزهد و المتاع , و الخشوع واللهو ثنائيات متناقضة و متضادة في صورة طباق أدبي , لكنهما كانتا متكاملتين في حاجة الانسان إليهما[7], حاجة عبد من أجلها الطبيعة والأسلاف و الأجداد و خلد لهم البنايات و أضرحة و راقصو الجسد قربهم لاسترضائهم , فكانت هذه الطقوس في لحظاتها الأولى الطفرة التي تمكن من خلالها الانسان من تناسق مع روح مقدسة , اجتمع الرقص والتعبد وغدا مظهر واحد ولغة واحدة يتحاكى فيها الروح مع الجسد .

1.2 العنوان الفرعي الأول: تمظهرات الطقس و الدين والفرجة في الزيارة .

و لقد تظافرت في ظهور هذا النوع من الاحتفالات عوامل عدة تاريخية اجتماعية و اقتصادية , ومن بين العوامل التاريخية الدينية هو التصوف الذي كان سببا مباشرا في أسمة المنطقة . فسكان الصحراء

هؤلاء الذين اعتنقو الاسلام بصحبة طقوسهم ومقدساتهم السابقة على هذا الدين الجديد , و أضافوا إليها مقدس الأولياء و المرابطين و العائلات الشريفة , وكونوا بذلك فسيفيساء دينية تتخذ من المرابط أو الولي و حتى الشريف وسيطا مع الله , تم إحياؤها و إنتاجها في طقس الزيارة بممارسات طقوسية اتخذت من الرحك الضريحي مقدسا لها من خشبات الزوايا تمسرحها , تتفاعل الروح والجسد في تناسق أصبح من تطور الطريقة ونهجها في التعبد و السمو بالحال[8].

إضافة الى عوامل تاريخية سابقة على الاسلام و حتى حركة التصوف و الإيديولوجية الشريفية , و في مجتمع ذي عهد جديد بإسلام , قد أعاد إنتاج هذه العوامل بقوة , ذاته و مقدسه في أزمنة و أمكنة أخرى خصوصا في عهد التصوف العملي يلبمغرب و التي اتخذت الكثير من دويلاته الإيديولوجية الشريفية في سياستها * مكنزمات * فاعلة في مناهجا الدينية المتخذة , و كعنصر تأججي للمشاعر والعواطف و الأتباع وهو الفعل الذي أدى فعلا الى توطيد عبادة الأولياء . وبذلك لم يحرم الإسلام الشعبي في صيغة هاته . سكان الجبال و الصحاري و الرابرة في معتقداتهم . بل كان الولي و الحفل الوسيلة لتلك المجتمعات لأسمنت روابطها .

الممارسة الاحتفالية " الزيارة " كما تنعت في قصور مجال دراستنا . كونها ظاهرة دينية مقدسة في الباطن و فرجة مسرحية في الظاهر . بالكشف عن بعض من فرجات المسرح المتخفية في الجسد التواتي في احتفالاته الشعبية جسدا رقصا و مزينا قد اقلع بنا من دراسات اكادمية لشعريات المسرح العربي .

2.2 عنوان فرعي ثاني : المجال الجغرافي لإقليم توات .

يقع اقليم توات في جنوب غرب الصحراء الجزائرية , التي هي جزء من الصحراء الافريقية الكبرى , وتبعد أقرب نقطة عن العاصمة الجزائرية بحوالي 1500 كلم جنوبا "[9] , يحدها من الناحية الشمالية العرق الغربي الكبير , ومنطقة تينكورارين "[10] , و كذا واد الساورة و عرق الراوي , ومن الجيهة الغربية واد مسعود , حيث تندثر مياهه في رمال عرق الشاش , الذي يحد الإقليم من الناحية الجنوبية الغربية , و شرق توات هضبة تادمايت و منطقة تيدكلت 3 , و جنوب شرقها سبخة مكرغان و تنزروفت . ويقع الاقليم بين دائرتي عرض 62 و 03 درجة شمالا , و بين خطي طول 4 و 01 شرقا , وهذا الموقع امتداد أدرار وتيميمون , وعين صالح , المنطقة الأولى (أدرار) تعرف باسم منطقة توات الوسطى و الثانية باسم

منطقة قورارة (تيميمون) , و الثالثة باسم منطقة تيديكلت (أولف) , و تعرف المناطق الثلاثة مجتمعة بـ " إقليم توات " . أثبتت الآثار أن الصحراء عموما و إقليم توات خصوصا كانت تتخللها بحيرات و مجار مائية و من هذه الآثار وجود الأسماك المتحجرة , و السباخ الموجودة الى حد الآن , كما اشتهرت بعض الوديان التي بعثت الحياة في توات .

يسود المناخ الصحراوي الجاف الشديد الحرارة صيفا تصل 60 درجة كأقصى حد في شهر جويلية و المتوسطة . أما التساقطات فهي شبه منعدمة اللهم إلا بعض الحالات الاستثنائية

1.3: الحفل و الدين

في تحليلنا للدين من منظر اجتماعي , فنركز اهتمامنا ليس على النصوص المجردة أو على التعاليم الدينية بحد داتها , ب على السلوك الديني في الحياة اليومية وفي محتواه الإجتماعي التاريخي ضمن اطار الصراعات القائمة في المجتمع , اننا نتبع بكلام آخر , منهجنا ديناميكيا كما فعل الباحث الإجتماعي حليم بركات في دراسته عن المجتمع العربي وليس منهجا سكونيا يحلل النصوص بمعزل عن الواقع , ونحن لما نتحدث عن الدين في هدا المقام فإننا لا نقصد العقيدة أو الإيمان فليس من مهام السوسيولوجية أو الأنقربولوجية هدا الميدان . وإنما نشير الى انماط التدين التي بمقتضاها يتم الوقوف على علاقة الإنسان الوجدانية و الروحية بما هو مقدس أو دنيوي , تلك التي تكشف عن بنية الوعي المحايث له , ورؤية الإنسان والكون والطبيعة والمجتمع .

و اذا كان الدين يتكون من مستويين اثنين لا ثالث لهما , هما المستوى الاعتقادي و المستوى التعبدي وادا مان الأول , ينطوي على المقدس , والأسطورة و المعتقد , وما وراء الطبيعة , والاهيات , فإنه هو الموجه للمستوى الثاني والدي بدوره يظهر لنا من خلال الكم الهائل من الشعائر / الطقوس , والتي تمثل الإحتفالية وما تحتويه من رقص وعروض إيمانية جسدية وممارسات شعائرية وطقسية , ارقى صوره . ذلك ان الزيارة هي تجسيدا لما يسمى بالتدين الشعبي , وممارساتها الشعائرية والطقوسية لا تعدو ان تمثل للغالبية العظمى من الزور والمزورين كواجب ديني مقدس , وجزء من كيانهم الوجودي والهوياتي , ومن خلالها يحددون نظرتهم للكون والوجود , لذلك تجد صعوبة –أنت كباحث– ونوع من الإحراج لك ولمن تسأله

)المبحوث/ الزائر) , عن سبب حضوره وقيامه بطقس الزيارة , فاليوم لا يتساءل اي مهندس أو طبيب أو قانوني مهما كانت درجته العلمية ومتطلعا بتقنيات البحث العلمي , مهما كان مؤمن بحقيقة الصوم والصلاى , لا يسئل عن سبب ذهابه للزيارة . كما ان المجتمع الذي نحن بصدد دراسته ذو سلوك ينتزع غلى التدين وتؤثر فيه القيم والمعتقدات الدينية بشكل كبير.

إذا كان الفيلسوف الإغريقي عرف الإنسان بأنه حيوان اجتماعي ناطق فإنه على خلاف ذلك هناك بأنه من يصفونه بأنه حيوان متدين , ويذهب الفيلسوف هيجل ان الانسان هو الكائن الذي يحرص على ان الكون له دين , اد يمثل ركنا اساسيا في بنية تكوينه داخليا وينعكس ذلك من خلال تصرفاته خارجيا , واننا نجد مجتمعات بدون حضارة ومجتمعات بدون صناعة لكن ليس هناك مجتمعات بلا دين , "الأمر الدي دفع البعض الى القول بأن الإيمان والتدين لم يكن قط شيء مكتسبا , بل هو فطري ويسبق وجود الإنسان " فالدين قديم قدم الإنسان ذاته فمند وجد الإنسان وجد معه دينه .

إنه حسب هذه الحقيقة فقد وقف الانسان مند مهد وجوده على سطح الأرض متألما من ظواهر هذا الكون و غوامضه وفي وقت ذاته متأملا فيها , ويحركها في خوفه ,فتارة يحاول ان يستأنس كل ما حوله وتارة راح يفكر في استرضاء القوى الغيبية – وذلك بتقديم القرابين لها وتارة بالتوسلات والرقص – التي تضن انها تتربص به وتعمل على انها وجوده أمام الظواهر المحيطة به " ومند ذلك الوقت ولدت فئة الكهنة ونشأ الدين لتأمين الإنسان في ذاته املا في البقاء على قيد الحياة دفعه إلى تجاوز حدود معارفه وازمانه ووجوده من أجل الوصول الى النهائي او لتاسيس فكرة الالوهية "[11]

ولم يتوقف الدين عند الحضارات الأولى والمجتماعات البدائية القديمة , بل على مر تاريخ البشرية وحتى الحضرات الصناعية والتكنولوجية المعاصرة في وقتنا الحاضرة , فذلك يعزى ال كون الدين لا يزال يلعب دورا محوريا على جميع الأصعدة الحياتية السياسية والإقتصادية والإجتاعية في حياة الأمم , حتى يومنا هدا , أو ما يسمى بعودة الديني .

لا نريد من هده التوطنة وما بعدها البحث في الظاهرة الدينية في ذاتها ولذاتها وإنما لتحديد علاقتها بالظاهرة الإحتفالية هذه الأخيرة , والتي هي في حد داتها ظاهرة أساسية ومركزية في بنية الوعي الديني الشعبي بمجتمع الدراسة , "ان ظاهرة الإحتفال لا تدكر فقط بالدين وإنما هي تجربة دينية في بعد من ابعادها "[12]

ان الوقوف على الحقل الديني في ذلك المجتمع سواء من الناحية الفئات الإجتماعية المتدينة او مؤسسات الزوايا والرجال القائمين على المعرفة الدينية وتأويلها , بين لنا الكثير من جوانب ظاهرتنا البحثية الأساسية ويجيب على سؤالنا الفرعي المتعلق بسر استمرارية هذه الظواهر في وقتنا الحاضر . وهل هي من الدين ام على الدين , واي دين رسمي او شعبي؟

فنحن نجد لدى دوركايم اهتماما بالأشكال الأولية للحياة الدينية وأهمية الدين في المجتمعات البدائية , ولكن نجد لديه كذلك مجموعة من الإشارات عن الديني الدي يتخد اسماء جديد , مثل طقس الاحتفال وهو ما يعني ان الدين محايث للتجارب الاجتماعية , ورغم ذلك ان دوركايم لم يؤكد على ذلك لاغنه لا يقلص في شيء من اهميته . علينا ان نعترف بان بداية علم الاجتماع تزخر بالتأملات السرية والهامة حول مشكل الديني .

لذلك فعندما نتحدث عن الدين هنا في هذا المقام , فاننا لا نقصد ال عقيدة او الإيمان وانما نشير الى انماط التدين التي بمقتضاها يتم الوقوف عى علاقة الإنسان الوجدانية والروحية بما هو مقدس او دنيوي , تلك التي تكشف عن بنية الوعي المحايث له , ورؤية الانسان والكون والطبيعة والمجتمع . ولما كان ذلك يشير الى التجلي العملي له في الممارسات اليومية و الموسمية , فاننا نسعى الى رصد صيغ الوعي والممارسات العملية التي تظهر خلال التدين الشعبي الدي ينبني في الإعتقاد بالأولياء , وتقديس آل البيت , وزيارة الأضرحة وإقامة المواسم و الإحتفالات الدينية اي طقس الزيارة . والإعتقاد بمس الجن والرقص للشمس والقمر اثناء ظاهرة الكسوف , وبعض الممارسات السحرية وبعض الألعاب الشعبية مثل اشعال النار و القفز عليها , وتقديس بعض الأماكن و الأشجار و منابع المياه والايمان بالكائنات الخرافية "ازمان الناس كانت هنا فالصحرا يومنو بكل شي , اعلاه عايشين في الخلاء مع قلة الاخبار الي جاب ليهم الخبز يصدقوه , مايسولو اشكون جابو اولا منين مصدره , ولا صح ولا كدوب عليها يامنو بالسابعة الغولة او المتيسمة والسابعة المتيسمة " 23 . بمعنى ان أهل الصحراء يومنو كثيرا وبسهولة وذلك لقلة المصادر الإخبارية فشحهم للمعارف يجعلهم يصدقون كل الأخبار ولا داعي للبرهان عليها او اخضاعها للمنطق العقلي فصحته تكمن في بيانه لا برهانه / مما يجعلوهم يؤمنون بالخرافات و الكائنات الغيبية الخرافي والاعتقاد في شتى الأشياء كالاشجار والحجار .

فالتدين بالنسبة الينا يشمل بالضرورة كل المعتقدات والطقوس التي يعتقد الناس انها دينية يتعاملون معها على هدا الأساس, ذلك انه ليس من مهام السوسيولوجية كعلم اجتماعي البحث في ما هو ليس كذلك, ويعتبر الهدف من وراء وصف هده الممارسات الدينية او الطقسية ولكن من وجهة دينية هو محاولة تحديد دلالاتها ومعانيها و الوظائف التي تؤديها وسط مجتمع تقليدي , يعيش معيشة القلة وتنتابه الكوارث الطبيعية المختلفة – كما بينا سابق – ذلك انه لا يمكن اختزال الطقوس في كونها خطابا مهمته حل التناقضات المنطقية , ولا في كونها نظاما معرفيا او تقنيات اعلامية وتواصلية حو الطبيعة والمجتمع . "فتأويل الباحث للطقوس ينبغي استحضار كل هده الابعاد عبر ربط البعد الثقافي بالبعد السيسيولوجي : ذلك لان الابعاد المحلية والكونية , المثالية و الاجتماعية , تتداخل جميعها في صياغة الطقوس وتحديد معانيها.

والدين في ابسط تعريف له , هو كل وعي بما هو مقدس وغيبي , قوي ومخيف , ومن حيث هو كذلك فانه عبارة عن مجموعة من المعتقدات والممارسات التي يؤديها الإنسان في ضوء مفهوم المقدس الذي يطرح رؤية شمولية للكون و الذات وهو ما يفرض ضرورة التمييزفي الوقت الحاضر , فيدعي ثلث سكان هذه البلدة أنهم من سلالته وانهم ورثوا سره فيلعبون دور الوسطاء بين المؤمنين الذين يزورون الزاوية والله مقابل هدايا وندور فشكلوا طبقة ذات امتيازات خصة

اذا كان التدين الشعبي يمثل حقلا واسعا من الممارسات و العقائد التي يدخل فيها كرامات الأولياء وطقوس الاحتفالات و الرقص وتقديم الندو والهبات , وحتى الممارسات السحرية كل جماعة تمارسه حسب نظرتها الى الكون في علاقتهما مع المقدس فان الزيارة / الحفل ما هي الا التجسيد العملي له ولطقوسه العامة , حيث تمثل فرصة ملائمة للممارسة أغلب شعائره وطقوسه أو كلها , فالمؤمنون الذي لا تسنح لهم الفرصة طوال السنة من رجال ونساء من زيارة الضريح أو تقديم النذور , فإن يوم الحفل هو فرصتهم الوحيدة , لزيارة الولي /الضريح – يتمحور حول الحفل – والذي يلعب دورا مهما في النظام العقائدي لكثيرا من الناس الذين يشاركون في الإحتفالات للحصول على البركة . وإن كان هناك نفرا يشارك فيها أما لجني الفوائد المادية او لتفريغ الضغوط التي يحيا بين جنباتها في اطار الواقع المعاش .

و هكذا فالقصوريون كلهم وبمختلف فئاتهم الإجتماعية و الثقافية)نقصد هنا اطارات جامعية و أساتذة) , من خلال من مشاركاتهم في الإحتفال بموالد الأولياء يعبرون عن نوع من الاعتقاد الشعبي الدي يعد مكونا اساسيا من مكونات الفكر والممارسة ,وان كانت الفكر و الممارسة , وان كان الزيارة لا

تقف عن كونها مناسبة دينية لتقديم واجب ديني تتمتع فيها الفئات الاجتماعية) الفلاحين واصناف المتعلمين , وحتى اطارات) بممارسة طقوسهم واعتقاداتهم الدينية فقط بل ايضا للتسلية والاستمتاع واللعب والرقص الديني .

ويمكن الإشارة هنا الى ما قدمه لين في كتابه "المصريون المحدثون عاداتهم وطرق حياتهم " الذي يرى ان زيارة موالد الأولياء وقبورهم هو نوع من الواجب المقدس الدي من خلاله يتم الحصول على البركة . وهي اهم عناصر او مكونات الديني الشعبي في الفضاء الاجتماعي التواتي الى جانب الولي والتصوف .

فالزيارة حج الفقراء , فلا تعد بالنسبة الغالبية مرتديها ان تكون , سوى تقديم واجب ديني مقدس . لذلك ولو لفئة قليلة منهم تمثل لهم حج بمعنى الكلمة واضح المعالم بكل طقوسه وشعائره ومناسكه ونسكه .

بل ان هناك كثيرا من الزائرين من يعتقد ان زيارته للضريح تعوض له يوم الزيارة ومشاركته في الحفل هو بمثابة قيامه بالركن الخامس من الإسلام وهو ركن الحج . وقد روى انا مبحوث الشرفان ن في قصر اولاد علي بادرار سابقا لم يكن يدهبوا لتأدية فريضة الحج في البقاع المقدس بل كانوا يكوفون على ضريح قصرهم سبع مرات فقط وبهذا الطواف يغنيهم عن اذاء فريضة الحج , " أنا من الي نعقل في ولاد علي الشرفاء عمرهم ما كانوا يمشوا للحج , اطوفو على جدهم سبع خطرات وذاك هو حجهم , غير هناهنا ولاو يمشوا للحج من الي عرفت الناس الدين الصحيح " .

لقد تناولت الباحث الأنثربولوجي نور الدين الزاهي في كتابه السابق الذكر المقدس والمجمع بأن الزيارة هي حج الفقراء , حتى الناحية اللغوية نقول زار المكان اي حج اليه , وقبله المؤرخ والمصلح الديني الذي ناذى بتغيير هذه السلوكيات واعتبرها بدع وخرافات . وهو الناصري في كتابه الاستقصاء في معرفة اخبار المغرب الأقصى , حيث يقول " من البدع التي لم نتمكن من الوقوف عن مثلها في المغرب وفي باقي البلدان المغاربية , بدعة حج المسكين .فمن لم يكن بمقدوره القيام بالركن الخامس من أركان الإسلام بن مشيش يوم عرفة , وبذلك تتم محاكاة الأضرحة بالكعبة , فزيارة مولاي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه بمثابة القيام بفريضة الحج ",ويوضح الناصري في كتابه ذلك بقوله: " واجتماعهم كل سنة للوقوف يوم عرفة بضريح الشيخ مولاي عبد السلام بن مشيشرضي الله عنه ويسمون ذلك بحج المسكين " وميدانيا في مجتمع الدراسة قالها احد كبار السن ساخرا , وهو من قصر تيدماين مات رحمه الله , في فقرة الرقاني قال :" هذا حج المساكين فالذي لم يسعفه الحظ ان يحج في مكة فهدا هو حجه بالرغم انه كان مع اهل

الفقرة . واشتهر بهذه المقولة واصبحت متداولة بعد موته هذه المقولة ومنسوبة اليه لذى العامة و خصوصا في قصر وغزير جح حتى الشباب .

وفي المقابل ان معظم مبحوثينا ينفدون ذلك بعد انتشار الوعي الديني بالسنة والكتاب والصحوة من خلال الدعاة وتأثيرات الحركة الاخوانية قم السلفية ولو بشكل قليل غيرت من هذه المظاهر , فكل مبحوثينا يقولون بان الحج فرض لمن استطاع إليه وركن من أركان الاسلام الخمس , اما زيارة الولي ما هي الا حبا فيه وتدخل في زيارة المقابر للذكر والإتعاظ .

-الزيارة : 2.3

يرجع مصطلح الزيارة في مفهومه اللغوي الى الفعل زار, يزور , وبمعنى حج , يحج , فمن زار المكان أي حج إليه , لهذا ينعت الباحثون الغربيون زيارة الاضرحة و الاولياء بكونها حجا , انه الحج الدي ينجزه الفقراء . إضافة الى ذلك يتخذ لفظ الزيارة داخل السياق الدلالي الاصطلاحي معنى أخر في منحى مجازي , تعضده و تسنده سلوكات و أفعال عينة .

يقول نور الدين الزاهي الباحث المغربي الدي درس مواسم المغربية بطريقة انثروبولوجية معمقة : " مجازا تطلق الزيارة على العطية أو الهدية التي يقدمها الأتباع و الزوار للشيخ أو الولي , مثلما تشمل هاته الأخيرة كلا من الهدية الكبيبرة (ذبيحة , زربة , غطاء الضريح) و الهدية الصغيرة (شموع , نقود و حناء , بخور , ماء الزهر ...) و تتمايز عن هذا السياق " الفتوح " و الذي هو عبارة عن عطاء يقدم لأحدى حاملي البركة قصد العلاج أو الدعاء أو زيارة قبر الولي الصالح أو الدعاء أو زيارة قبر الولي الصالح "[13] , و ان ليس بينهما اختلاف بائن , و من النحاية السلوكية تتوزع الزيارة الى زيارة صغيرة و أخرى كبيرة . فالزيارة الصغيرة تكون إما فردية أو سرية , وتعني زيارة ضريح الولي , مثلما قد تحدث أي وقت من أوقات السنة , أما الزيارة الكبيرة فهي ما يسمى بالموسم وتتم في زمن محدد .

تتعدد تسميات الاحتفالات الدينية الشعبية ذات الألعاب الفلكلورية في مناطق المغرب العربي عموما , حيث تنعت بمصطلحات عديدة , تختلف من منطقة لأخرى إن كان مضمونها واحد مثل : الزردة , النشرة (منطقة الشرق الجزائري , قسنطيسنة) , الوعدة أو الطعم (منطقة الغرب الجزائري , مستغانم , معسكر , وهران) و و المعروف (منطقة عين الصفراء , البيض) , وفي الجنوب الجزائري تسمى بـ " الزيارة " مثلما هو الحال في المغرب[14].

و في الواقع ان الاحتفالات الدينية القصورية الشعبية التواتية , تنقسم الى ثلاثة أقسام تختلف تسميتها و منضمونها وهي : " الزيارة " , "و الفضيلة " , و " العيد " , و في اصتقصائنا لهذه المصطلحات مع عينة البحث كانت اجاباتهم كالتالي : " الزيارة هي زيارة ولي من أولياء الله وزيارة المشايخ , و الفضيلة هي أيام فضلها ربي , زيارة هي اللي يجو فيها الضيافين , و ارقصو فيها , كيف زيارة السي محمد بن المحفوض , و زيارة مولاي الحسان في تيدماين , قاع الناس يقولو اليوم الزيارة , اما نهار العيد المعروف هو العيد الكبير و العيد الصغير , أما الفضيلة هي كيما نهار القآن (ليلة سبعة وعشرون) و نهار حمسة عشر من شعبان و عاشوراء و محرم , ونهار وقفة عرفة ثاني , هذ الايام مافيهم لا رقيص لا ضياف ولكايني قاع الناس تستعد ليهم و اتسناهم و تقدسهم او تلقى الناس مخشعة و مستعدة , قاع الناس تلبس الجديد , و تاكل حاجة مميزة . و كاين ألي يذبح الديك كيما نهار ليلة سبعة وعشرين أو صوم منتصف شعبان ..) . الزيارة في المجتمع القصوري هي ذلك الحفل الذي يقام بمناسبة ذكرى وفاة الولي الصالح , وتقدم فيها مختلف الطبوع الفلكلورية و الرقصات الشعبية ويحضرها ضيوف , و قد تقتصر على تقديم الاطعمة فقط , مثل زيارة السي محمد بقصر المحفوظ , ومولاي الحسان بقصر تيدماين , وغير ذلك من الأولياء المضروحين في توات و حتى غير المضروحين (الجيلالي مثلا) ممن يبجلهم التواتيين , ولها نفس المضمون مع ما يقابلها من مصطلحات (الموسم , الوعدة , النشرة ..) ونعوت تدل على الاحتفالات الدينية ذات طابع فلكلوري مما ذكرنا سالفا من مناطق المغرب الاسلامي و غيره , وهناك شعور وتمثلات مشتركة لدى سكان توات بأن هدا اليوم هو يوم حفل ذلك الولي و يختلف عن المناسبات الاسلامية الاخرى مثل يوم عاشوراء أو العيدين , أي " الزيارة " عيد محلي ومرتبط بولي , أما مصطلح الفضيلة فهي أعياد و مناسبات إسلامية عامة يشارك فيها سكان توات بعاداتهم وتقاليهم الخاصة بهم في تلك المناسبة , كذبح الديك يوم ستة وعشرون من رمضان , أو جمع القمح للطالب (مدرس القرآن) و غير ذلك , و بتلك العادات التي تعودوا عليها يعطون للمناسبة نكهة خاصة , بل أمست جزء من هويتهم المحلية , وهناك من القصور من يقوم باحتفالاتهم السنوية الرسمية " زيارتهم " كيوم عاشوراء زيارة قصر " تمنطيط " .

و عموما فإن " الزيارة " هي الحفل الموسمي الذي يقيمه ساكنة توات بالقصور في وقت محدد من السنة مثل " زيارة الرقاني " إحياء لذكرى الولي الضروح , حيث تقام بالقرب منه فهو مركزها و منطلقها الأساي , و تقام فيها مختلف الطقوس الدينية , كقراءة لقرآن و طلاء الضريح , وقراءة بعض الأذكار و

الرقص بمختلف الطبوع الصحراوية المعروفة في المنطقة مثل رقصة الحضرة الصوفية , ورقصة البارود , و قرقابو الى جانب التزوار بين العائلات و حضور الضيوف .بحيث لا يطلق القصوريين على احتفالاتهم مصطلح " موسم " , بالرغم من أن غالبيتها ان لم نقل كلها تأتي في موسم جني المحصول الزراعي , فالموسم بالنبة لهم هو موسم الحرث و موسم الحصاد , وهو بالنسبة لهم مخصص بأطعمة معينو في اليوم الأول منه , مثل اليوم الأول في الشتاء و اليوم الاول من فصل الخريف .

3.3 : – الفرجة و التعبير الفني بتوات :

يقول **تشلدون تشيني** :" حيثما وعندما يتخطى البشر الصراع الصرف من أجل الوجود الجسدي إلى الآلهة و إعادة الخلق و التعبير عن الذات يكون ثمة مسرح بمعنى من المعاني : مكان للتمثيل , رقص , حوار , دراما في مشروع منظم للحياة ... " 15[15]. إن الحديث عن مسرح جمعي بعيد عن التأسيس المسرحي الإغريقي يقودنا الى إعادة النظر في الظاهرة الإحتفالية الروحي بالصحراء ، و التي تكلست في إطار النظرة الفلكلورية الجامدة التي تعاملنا بها مع هذا الإرث الافريقي منذ الإستقلال . تماهى سكان مناطق الصحراء مع الإحتفال في شكله الروحي (الديني) و خصوصا في أضرحة الاولياء و الصالحين أو ما يعرف بـ : " الزيارات – الوعدات " ، و جاءت هذه الإحتفالات ممزوجة بإرث قاري ومحمول انفوغرافي تتمازج فيه عديد المعتقدات التي انصهرت في احادية ووحدانية عقدية و روحانية قوامها العقيدة الاسلامية

إن الإحتفال في حواضر الصحراء يتخذ عمقه الإفريقي بكل معاني الكلمة ، و لا يمكن فيه الفصل بين الممارسة الشعائرية الإسلامية و طبوع الرقص و الإيقاع الإفريقي ، وبالرغم من التدين الشديد إلى درجة الحفاظية بين أفراد هذا المجتمع الصحراوي إلا أن الرقص والإنشاد شكلا الجانب الشكلي لهذه الممارسة الدينية ، و لم يتم الفصل بين التعبير الروحي و التعبير الجسدي ، بل صار الجسد يشكل لغة الروح في هذه الاحتفالات التي تجمع أحيانا بين : الأشراف و الحراطين [16].

لقد استعار المتدين الصحراوي لغة الجسد من معتقدات إفريقية و ثنية و مزجها في رحلة روحانية هي أعلى درجات الفناء و التوحد في الإسلام (التجربة الصوفية) ، و بما أن إفريقيا هي قارة الإيقاع و الرقص ، و شمال الجزائر صار جزءا من المشرق الإسلامي عقديا فإن الصحراوي بفطرته و بساطته التي روض بها قساوة الصحراء ، أستطاع أن يمزج بين هذين الوافدين و يشكل تجربته الروحانية الخاصة و الخالصة في احتفال يختصر قرونا من الممارسات و الطقوس ، وعلى حد قول **تشيني** إنه رقص تعبيرا عن طقوسه و سروره مكلما آلهته بالرقص و مصليا بالرقص و مقدما شكره بالرقص ، و هذا النشاط درامي ومسرحي في

المقام الأول ، في حركة المصممة أندست جرثومة المسرح ، هذه الجرثومة التي قدر لها أن تولد إغريقيا دون غيرها من كل ظواهر المسرح العالمية .

أن التأسيس الإحتفالي الذي أقامه سكان (القصور) في مناطق الصحراء لم يكن تعبيرا فنيا فقط ، و إنما هو طريقة تعايش احترمت سلطة المقدس في أطر احتفائية كانت تسترجع أمجاد الأجداد المؤسسين لهذا المجتمع البسيط في عيشه ، و المركب و المغقد في طقوسه .

و الناظر الى هذه الاحتفالات الشعبية يدرك ان هناك أجندة سنوية يحترمها سكان القصر تحضيرا للمناسبات والمواعيد الاحتفالية التي كانت ترتبط دائما بالممارسة الدينية : المولد النبوي و أسبوعه الشريف ، محرم ، عاشوراء ، رمضان ، زيارة مولاي عبد الله الرقاني ... ، و من خلال ما سبق يتبين لنا ان سكان الصحراء لم يستشعروا أي فراغ لشكل تعبيري كالمسرح ، لأنهم طوروا أشكالا تعبيرية في الرقص و الإنشاد و صبغوها بصبغة محلية جعلتها فنا خالصا تفخر به المنطقة و ما حاجتهم الى مسرح و هم يشتركون كلهم في اللعبة الاحتفالية ؟ و كيف يبحثون عن عرض وهم يشتركون فيما شبه مسرحا جمعيا بمعنى الكلمة .[17]

إضافة الى عوامل تاريخية سابقة على الاسلام و حتى حركة التصوف و الإيديولوجية الشريفية , و في مجتمع ذي عهد جديد بإسلام , قد أعاد إنتاج هذه العوامل بقوة ذاته و مقدسه في أزمنة و أمكنة أخرى , خصوصا في عهد التصوف العملي بالمغرب و التي اتخذت الكثير من دويلاته الإيديولوجية الشريفية في سياستها * مكنزمات * فاعلة في مناهجا الدينية المتخذة , و كعنصر تأججي للمشاعر والعواطف و الأتباع وهو الفعل الذي أدى فعلا الى توطيد التبرك بالأولياء . وبذلك لم يحرم الإسلام الشعبي في صيغته هاته . سكان الجبال و الصحاري و البرابرة في معتقداتهم , بل كان الولي و الحفل وسيلة لتلك المجتمعات لأسمنت روابطها الاجتماعية , " فتوح عرش هذه القبيلة أو تلك بفعل هذه الطقوسيات , ومن ثمة عند الولي و المرابط من الصادرات الروحية الشريفة التي تتسابق القبائل في اتخاذ واحد منهم يدر عليهم رأسمال رمزي ممثلا في البركات النافعة لها " 2 , و كما فعلت قبائل المغرب العربي , أعادت فعله القبائل والجماعات القصورية الساكنة في الجنوب الغربي من الصحراء الجزائرية , حيث لا يكاد يخلو قصر من شريف من أولاد الرقاني أو غيره من الشرفاء أو المرابطين لجني ثمار البركة , ومن هنا جاءت الظاهرة الإحتفالية .

الممارسة الإحتفالية أو " الوعدة " , أو " الزردة " , أو " النشرة " , أو " الطعم " , أو " الزيارة " كما تنعت بمجتمع القصور مجال دراستنا , كونها ظاهرة دينية مقدسة في الباطن و فرجة مسرحية أو ما قبل مسرحية في الظاهر , تناولتها مواضيع ومقاربات معرفية شتى , الكل يحاول أن يقارب الظاهرة على النحو الذي يراها مناسبا لتخصصه ومن وجهة معارفه الشخصية. ويعيد في الوقت نفسه عليه بالفائدة , كعلم الفلكلور والتراث الشعبي و الدين والتاريخ , و الأدب الشعبي وحتى علم النفس و لأن الغوص في التراث الشعبي القصوري الرمزي , للكشف عن بعض من فرجاته المسرحية المختفية بالجسد الإنساني في احتفالاته الشعبية جسدا راقصا و مزينا قد أقلع بنا من دراسات أكاديمية لشعريات المسرح الغربي أو على الأقل المهتمين به من العرب .

4. خاتمة:

الزيارة أو الحفل , العيد , الموسم .... بغض النظر عن كيفية ورود اللفظ , تتعدد المصطلحات و المعنى واحد , و كظاهرة عامة للإحتفالات و الأعياد في مدن و هضاب بلاد المغرب كما هو الحال في صحرائه , هي تلك الإحتفالات الشعبية الموسيمية , متعلقة بضريح / ولي , الذي يكون في غالب الأحيان جد قبلي . كما أنها (الموسم / الزيارة) متعلقة بما هو مقدس و لها بعد ديني , وتشترك جلها ان لم نقل كلها في الرقص و الفرح , وتمثل موروث ثقافي وديني لمجتمعاتها . تشترك في سمات واحدة موحدة سواء , وهكذا فالموروث الشعبي مهما كان طابع هذا النوع من الموروث الشعبي , فإنه يزخر بالعديد من التعبيرات الفنية و الأشكال الفرجوية , التي ترسم جانبا أساسيا من الهوية الإبداعية لذلك المجتمع , خصوصا ما يتصل بالمناسبات الدينية و مظاهر الفرح الديني و الإ جتماعي .

5. قائمة المراجع:

[1] خليفي عبد القادر , من الموروث الثقافي الجمعي المغاربي , منطقة عين الصفراء انموذجا , دار الأديب للنشر و التوزيع , وهران , دون طبعة , دون سنة , ص 030

[2] j.cazeneuve ; sociologie du rite , tabou, magie , sacre , Paris : Puf . 1971 ; p 14 .

[3] المبروك الشيباني المنصوري , جماليات الجسد وطقوسه الأحتفالية في أعياد شمال إفريقيا . مجلة دراسات أندلسية , مركز تحقيق تراث العالم الإسلامي , تونس , العدد02 , 1993 , ص 76-93 .

[4] بووشمة الهادي , الوعدة التمثل و الممارسة , دراسة انثربولوجية بمنطقة اولاد انهار وعدة سيدي يحي بن صفية انموذجا , مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجيستير علم اجتماع جامعة وهران , 2006 , ص1

[5] نفس المرجع ص02.

[6] نفس المرجع ص 1 .

[7] نفس المرجع ص أ .

[8] نفس المرجع ب .

[9] فرج محمود فرج , إقليم توات خلال القرنين الثامن والتاسع عشر الميلاديين , الجزائر,1977,ص01 .

[10] تينكورارين تعني باللغة العربية المعسكرات وهكذا يسميها ابن خلدون , وهي منطقة مأهولة بالسكان يوجد بها مايزيد عن تسعيت قصرا حسب الراحلة الألماني " جبرارها فلس" و حدائق النخيل . انظر حسن الوزاني , وصف افريقيا ج 2 , ص 133 , وتعرف بمنطقة "القورارة " وعاصمتها " تيميمون " .

[11] شحاته صيام , الولي و المقدس , مصر العربية للنشر والتوزيع , القاهرة , الطبعة الأولى , 2010, ص 15.

[12] نفسه ص 17.

[13] الزاهي نور الدين , المقدس والمجتمع , افريقيا الشرق , الدار البيضاء , 2011, ص 86 .

[14] أنظر فاروق أحمد مصطفى , انثروبولوجيا و دراسة التراث دراسة ميدانية , دار المعرفة الجامعية , القاهرة , 2008, ص 28 /30/29 .

[15] تشلدون تشيني ، المسرح في ثلاثة آلاف سنة ، ج1، تر: حنا عبود ، وزارة الثقافة ، ط1، دمشق ، 1998، ص15.

[16] د.محمد شرقي ،أ.خديجة بومسلوك ، الحركة المسرحية في أدرار ،دار أوال ،ط2015،1،ص14-16/15.

[17] أنظر المرجع السابق ، ص 18.